أسعد طفل

قصة بقلم فهد الأسدي

كان الربيع قصيرا تلك السنة على عادته في بلدتنا ، اذ لم يكد مايس يصرف اخر عقد من عقوده الثلاثة حتى اختنق الجو برطوبة لزجة تبعث على الخمول .

وكانت العائلة تجتمع مجلسها كل ليلة .. نفس تقطيبة ابي التي اراها مرتسمة على وجهه دوما ، تلك التقطيبة التي ربما استطعت ان احل بعض رموزها : « الشق كبير ، والرقعة صغيرة » .. عبارة سمعتها سنين طوال تبادلتها امي وابي ، لا بل كنت اسمعها من كل المخلوقات التي تشاركنا سماع ضجيج حارتنا ، وشم نتانة طرقاتها الحافلة بجيوش الاطفال والذباب ؟

كانت امي قد اشتدت عليها الحمى ، ومن خلال نوبات سعالها العنيف كانت ترنو بعينين زائغتين لي ولاختي الصغريين .. رحمها الله ! لا ازال اذكر مشهدها عندما تجتاحها تلك النوبات اللعينة ، مشهد هين علي استحضاره في مخيلتي ـ رغم ضباب متاعبي ـ واضحا كما يظهر موقف سينمي على شاشة صقيلة . كانت تقبض على صدرها بعنف ، وفي الساعات التي يحضرها ابي كان يسارع الى اسنادها على صدره . اما انا فكنت اقف حائرا ، وموقفي هذا كاف لاثارة ابي فيغضب قائلا : « هيه ـ يا حمار انت اضعف من ان تفك رجل الدجاجة عن رباطها » .

وكم كانت تؤلمني هذه الشتيمة ، لذا فقد كنت متحفزا لعمل اي شيء يحوز رضاء ابي ، وهذا ما حدا بي ان اصمت عندما اخبرني ابي : بأن علي الالتحاق بخدمة ضابط المنطقة .. واكمل والدي : بأنه طالما ان العام الدراسي قد شارف على النهاية فاني استطيع ان استغل الفرصة قبل ان يلتحق بهذا « المنصب » غيري !

وامتد صمتي .. فانا اعرف ما يعني هذا : انه يعني عطلة متعبة كسابقتيها ، لكني بالتالي رضخت ، فعلي ان افعل ما يرضي العائلة .

لكن قبل ان انخرط في سرد قصة اشتغالي في خدمة ضابط المنطقة تلك السنة اللعينة علي ان احدثكم حول علة كرهي لخدمةالبيوت. فقد كنت قد خبرت في السنتين السابقتين عمل البيوت وما يمثل فيه من استغلال شره : التحقت في المرة الاولى بخدمة بيت مفوض الشرطة وكان علي ان اعنى بطفل العائلة ، وكان ـ ولست ادري سببا لذلك ـ يعاف الرضاع ، ولذا فقد كان يكثر من البكاء وكأنه مذياع الدار المهذار وكثيرا ما تندرت عليه وقلت : بأنه اشبه بالمذياع « يأكل هواء ويخرج صراخا » !

يا لشقائي ! لقد كانت مهمة عسيرة علي حينذاك اسكات ذلك « الشيطان الصغير » ، وفي يوم ضاقت اعصابي ذرعا بتحمل بكائه ، فصرخت ـ بنفاد صبر ـ في وجهه ، واستلمت ثمنا لذلك عن اجر خدمتي لشهرين ضربا مبرحا مع الطرد !

***

وفي العطلة الثانية ألحقت بخدمة دار « موظف حكومي » اخر ، واحسست تفاؤلا اول الامر عندما علمت ان الموظف لا اطفال له .. لكن بعد ان وضع على عاتقي نير العمل ، وجدتني مضطرا للاشتغال طول النهار وقسطا كبيرا من الليل لقاء سبعمائة وخمسين فلسا شهريا : كان علي كنس الدار ، وشراء الحاجات ، وتنفيذ كل الطلبات .

وعندما شكوت لابي حينذاك ارهاق العمل ، اجابني ورنة حزن « تعتم » صوته : « يا ولدي ! من اجل ان نعيش هذه الحياة علينا ان نشقى فيها تعبا . » وراح يشرح لي طويلا حتى عن فكرة « تعب الاسنان في مضغ اللقمة » واحسست انه يحاول ان يقنعني عبثا فلسفة يشك في ايمانه بها نفسه !

ومن تعبي ليلتذاك لم تتسن لي مناقشته ، فرحت في سبات عميق ، اذ كان علي التبكير في الحضور الى عملي .. ورغم انني رأيت مئات الصور لعاطلين بالوراثة يأكلون بشقاء غيرهم دون الحاجة لتعب قليل ، لكني كنت افكر بعدم نفعية مناقشة ابي فلسفته طالما اجد ايمانه بها كسيحا .

ولذا فقد واظبت على العمل بلا احتجاج . وتطور عملي حتى نما الى نقل رسائل الغرام بين زوجة الموظف وعشيقها .. كنت في اول الامر قد رفضت نقل مثل هذه الرسائل ، لكنني ادركت اننا الفقراء من اجل ان نعيش نضطر حتى الى اضاعة كراماتنا احيانا .

والى نهاية تلك العطلة اللعينة كان التعب قد خلفني شبحا يثير الكآبة والشفقة ، ولذا فقد تصورت فرحتي لانهائية عندما بدأت الدراسة.

***

بعد تلك المقدمات اطمع في ان اجد لي عذرا عن استقبالي لعرض والدي بذلك الفتور . ومع ذلك قبلت العمل على مضض .

ومع غبش النهار كان علي ان احضر لكنس دائرة الضابط وبعد حضوره للدوام كان علي ان اسحب مروحة قماش ثقيلة معلقة في السقف لاروح له عن الحر .

كان ذلك الضابط رجلا صارما يقطب جبينه بتبرم دوما .. كان من النوع الذي تشق على المرء رؤيته باسما !

ونتيجة لروتين عملي وصمتي كثيرا ما كنت استسلم الى نعاس تسرقه عيناي المكدودتان فيسقط عندئذ حبل المروحة من يدي فتختنق الغرفة بانفاس الجالسين وهنا يحس سيدي باهمالي فيهضل لسانه باقذع الشتائم .

وعند انتهاء الدوام كان علي مرافقة سيدي الى منزله لاروح للعائلة في القيلولة .. كان البيت يعج بحركة دائمة : الزوجة والحماة وثمانية اطفال يكاد ان ينعدم بين بعضهم فارق السن . ووسط كل هذا الضجيج كان علي مواصلة عملي ..

كان الحر يتأخر الى ما بعد المساء . وكنت التذ ـ لا بل انتقم ـ عندما اترك المروحة تسقط من يدي لاترك الضابط واهله يسلقهم الحر والى ان تبتل اجسامهم عرقا اظل اواصل النظر . وكنت احس راحة عندما انفس عن متاعبي بهذه الطريقة . كان من حقي ان افعل كل هذا ، اني ـ على كل حال ـ انسان اختلف عن حصان الناعورة الذي يدور في حديقة المنزل طول اليوم دون احتجاج على تسخيره . وعندما احس ادنى حركة تقلب من النائمين اعود فاسحب المروحة بنشاط . ويوما ضبطتني الحماة وانا التذ بلعبتي تلك ، فانبتني بقسوة . كانت هذه امرأة مترهلة الجسم اشبه بخنزير فقد ضاعت رقبتها وسط اطواق اللحم .. شرهة اذ عندما توضع المائدة كان بودها ان تزدرد كل شيء ربما حتى الاواني. فتح غطاؤه فهاضت نتانته . وكانت المسكينة « شوقية » التي الحقوها وعندما تذيع معزوفات شتائمها كانت اشبه ببرميل معبأ بقاذورات نتنة

معي بالخدمة تنال « حصة الاسد » من هذه « الخيرات » . اشيـــاء كثيرة لا زلت اذكر صورها عن هذه الحماة ، لقد تأسيت منها كثيرا ، والانسان قد يغفر لمن يسيء له لكنه لن ينساه .

كانت كثيرا ما تبصق في وجوهنا مرسلة كفها الضخمة الى قفانا وخدودنا لا لسبب في اغلب الاحيان سوى انها اعتادت فعل ذلك ! اذكر عنها انها كانت عندما تكلفنا قضاء حاجة لها تأخذ بالنعيق موصية: «هيه! اركض مثل الطير الطائر ، والحصان الغائر » . وكنت اكاد امسك روحي عن مفارقة جسمي عندما انفذ وعدها ، فاعود مسرعا بلهاث يقطع الانفاس.

من الممكن ان ضباب متاعبي قد انساني كثيرا مما تأسيت ، وفوق ذلك انني ــ ايام طفولتي ــ كنت لا احس تناقضا في حياتي فقد كانت تبدو لي شقاء « سرمديا » .. كنت قد حسبت كل هذه القسوة شيئا عاديا وثمنا لاني اعيش الحياة ! كان هناك شيء واحد يخفف الى حد ما متاعبي ، هو ان ربة البيت كانت تسمح لي بحمل ما يتبقى من طعـام او فاكهة رفقا بأمي المريضة ، وقد وجدت في عملها سرورا في اني اجد انسانا يعطف على اسرتي الشقية .

وذات مساء التقيت بثلاثة صبية من رفاقي بالمدرسة طلبوا منـــي شيئا مما احمل ، وعندما ابيت طرحوني ارضا والتهموا بسرعة كـــل الطعام الذي معي وفروا . وليلتئذ عدت الى منزلي كسير الفؤاد،وبكيت امام سرير امي . كانت مسجاة وعندما احست بحركتي فتحت عينيها ، ونادتني بخفوت فاقتربت منها وارتميت على صدرها الحنون ،واكتشفت فجأة شيئا جديدا : ذلك اني لم اكن اعرف من قبل ان الامومة يمكن ان يكون لها كل القيمة خاصة بالنسبة للاشقياء المحرومين . كان ابـــي يجلس القرفصاء وثمة اشياء كثار تملأ رأسه .. كان «يجتر» آلامـه بصمت فيتلون وجهه بالسهوم ، وعدم القدرة على دفع احداث قدر لهـا ان تقع ، ولذا فقد فوجيء عندما اختنق صوت امي بعتاب مرير :

ــ صالح ! الا ترى الولد .. لاحظ هزاله الشديد . اوه ! لا اريد لابني كل هذا الـ ..شق..اء واستجاب صدرها لخفقان عنيف . واحتدم سعال مميت في حلقها .. لقد حاولت جاهدة ان تخرج الكلمات ، لكـــن القيء ملأ فمها ، وعندما نفثته خيل الي انها تقيأت كل احشائها ..

ومن ليلتها عدت بلا ام .

ووجدت كل العبث في خدمتي وتعبي فلقد « انتهت الكوميديا ».. خيل لي ان متاعب كل الناس تتجمع على هامتي الصغيرة .. الكـــل سعداء عداي !!

لم اكن افطن الى ان هناك من يحسدني عيشي الى ان فجأني يوما صديق لي بهذه الحقيقة : كنا نلهو بصف الحجارة ونبتني منها بيوت الاطفال . وخلال اللعب كنت احس ان صديقي الصغير يتحسر علـــى اشياء كبيرة : ربما كانت امالا بالعيش تحت سقف قصر تحيطه حديقـة غناء تصدح اطيارها ــ نفس امالي انا ــ لكننا ننفس عنها بهذا اللعـب اللامجدي ، حيث ان الشقاء قد يصنع منا رجالا يحسون الحســـد ويلتمع في عيونهم بريق الطمع في عيش المرفهين . وعندما بسطـــت لصديقي مشاركة كل ما احمل من اماني ، تنهد ــ تنهيدة حسد ــ على ما ادركته وقال لي :

« ــ ومالك يا هاشم والتمني لقد كنت اراك سعيدا في بيـوت الموظفين ، فقد رأيتك يوما وانت تعض باسنانك خوخة ، شيء لم اذقـه انا يـــوما . »

وبعد سكوت قصير اكمل : « ليس من حقك يا اخي ان تبكي حظك فقد ذقت عيش المتمدنين في بيوتهم .. بصراحة لقد كنت اسعدنا . »

وتهدج صوت صديقي وطفت عليه مسحة حزن فاسفت لانني سببت له كل هذه الالام ، ولم اقو على تبليغ سخريتي من هذا الشقي الصغير. كنت قد اردت ان اقول له :

« يا لها من سعادة اثارت حسدك ! »

لكن كل ذلك ضاع مع سكوتي الحزين على خسارة الاستمتاع بطفولتي.

العراق ــ قضاء الجزائر — **فهد الاسدي**

المسافر

***

كانت تجيء اليه شاحبة صغيره

تندس في شفتيه بسمتها ، وتلتف الضغيره

في كفه العطشى ، ويحتضنان بعضهما طويلا

وتذوب بين يديه ، والظامات تمتص الاصيلا

عبر الشحوب الكستنائي الغريق

في حمرة تذوي ،

« صديقي آه قبلني طويلا »

كان التفاف الكستناء وعتمة الليل العميق

شهود حبهما ، وكانا يرحلان

في زرقة الافق الشرود

او يقضيان عشية السبت الطويلة يرقصان

في ليل مقهى عاصف بالجاز . كان لشعرها عبق الورود

كانت تجيء اليه يثقلها الحنان

في دفئها وعبير نهديها وسمرة ساعديها

ورحيل نجم متعب في مقلتيها

ثم اختفت عنه ولا يدري لاين

ببساطة لم تأت في الميعاد . كانا عاشقين

والحب في هذا الزمان

مسافر يأتي ويرحل فجأة عنا ، ولا ندري لاين

موسكو — **حسب الشيخ جعفر**